

مائة شاعر ملك

المعتمد بن عباد

عيسى فتوح

ما ان وطئت قدماي أرض اشبيلية صيف عام ١٩٨٠ ، ولاحت لي عن كُثب أبراج القصر العربي وبرج الذهب ، ومُذنة « الخيرالدا » الشامخة بعنفوان الى السماء ، وتهادت أمامي أمواج نهر « الوادي الكبير » ، حتى قفزت الى ذاكرتي مأساة شاعرها وملكها المعتمد بن عباد الذي حكم بها ردها من الزمن ، وأقام « البازي الأشهب » رئيساً لحرسه - وكان هذا مغواراً مَخُوفاً - واستسلم بعد أن ملك الى حياة اللهو والعبث والمجون .

عاشت اشبيلة في عهد ملوك الطوائف تحت حكم بني عباد الذين أعقبوا بني جهور ، وكان أول من تولى الحكم منهم اسماعيل بن عباد اللخمي الذي اختاره أهل اشبيلية بالاجماع لحصافة عقله ، وعلو همته ، وحسن تدبيره ، ثم خلفه ابنه المعتمد فسار على نهج أبيه في الاصلاح ، ونشر العدل ، ولكنه استبد وحده في الأمور ، وكان صارماً ، قاسياً ، شديد الدهاء ، نكل بوزرائه واحداً بعد الآخر ، فمنهم من أماته صبراً ، ومنهم من أماته خمولا وفقراً ، ومنهم من شرده ونفاه عن البلاد ، وظل كذلك حتى توفي عام ٤٦٤ هـ .

وقام بالأمر بعده على اشبيلية ابنه أبو القاسم المعتمد بن عباد الذي كانت حياته كرمًا وأدباً وملهاة انتهت بمأساة مفعمة ، كأكثر الملوك والنبلاء الذين ينغمسون في المجون ، ويفرقون في الترف والنعيم الى أذانهم دون أن يحصنوا ملكهم بما يحتاج من قوة ومن اعداد واحكام .

تولى الملك عام ٤٦٤ هـ وعمره سبع وثلاثون سنة ، فجمع حوله الأدباء والشعراء ، وراح يوزع عليهم الهبات ، ويفدق العطاءات السخية ، فاجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك قبلة من ملوك الأندلس ، وكان هو نفسه شاعراً مجيداً ، فآلى على نفسه ألا يستوزر وزيراً الا اذا كان أديباً شاعراً ، حسن الأدوات ، ولذلك استوزر ابن زيدون ، فاستطاع

بمساعده أن يخضع قرطبة لسلطانه ، ويخلع عن عرشها ابن جهور • كذلك استوزر ابن
عمار ، وهو أحد الشعراء المجيدين ، فصادقه وجعله من خاصة أصفياه • وكان من جملة
شعرائه أيضاً ابن وهبون المرسى ، قربه لجودة شعره ، وبعد أن سمع قوله :

قل الوفاء فما تلقاه في أحد ولا يمر لمخلوق على بال
وصار عندهم عنقاء مغربة أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال

كان ابن عباد شاعراً رقيق الشعر، أنيس المجلس ، يحب الشعراء ويرعاهم • نظم الشعر
في غرامياته وفروسيته وحروبه ، وبعد مأساته التي جاءت على يد يوسف بن تاشفين ،
أمير المرابطين في المغرب ، ومن جيد قوله :

علل فؤادك قد أبلّ عليل واغنم حياتك فالبقاء قليل
لو أن عمرك ألف عام كامل ما كان حقاً أن يقال طويل
أكذا يقود بك الأسى نحو الردى والعود عود والشمول شمول
لا يستبيح الهم نفسك عنوة والكأس سيف في يديك صقيل
بالعقل تزدهم الهموم على الحشا فالعقل عندي أن تزول عقول

وبينما هو يوماً في قبة له يكتب أو يطالع ، وعنده بعض كرائمه، دخلت عليه الشمس
من بعض الكوى الكائنة فيها ، فقامت جارية دونه تستره من الشمس فقال :

قامت لتجذب ضوء الشمس قامتها عن ناظري، حُجبت عن ناظر الغير
علماً لعمر كـ منها أنها قمر هل تجذب الشمس الا غرة القمر؟

وكانت جارية من كرائمه قائمة على رأسه تسقيه ، والكأس في يدها ، اذ لمع البرق ،
فارتاعت فقال :

ريعت من البرق وفي كفها برق من القهوة لماع
ياليت شعري وهي شمس الضحى كيف من الأنوار ترتاع ؟

كان أبناء المعتضد كلهم شعراء ، وخاصة الراضي الرقيق صاحب « رندة » ، لكن
المعتمد - كما يقول المستشرق الاسباني اميليو غارسيا غومس - بذهم جميعاً ، وفاق
كل معاصريه في ذلك المضمار ، لأنه كان يمثل الشعر من ثلاثة وجوه : أولها أنه كان ينظم
شعراً يثير الإعجاب ، وثانيها أن حياته نفسها كانت شعراً حياً ، وثالثها أنه كان راعي شعراء
الأندلس أجمعين ، بل شعراء الغرب الاسلامي كله ، فالى بلاطه لجأ شعراء أفريقية وصقلية
عندما غزا النورمان بلادهم واستولوا على بعضها وتهددوا الباقي •

كانت حياة المعتمد عجيبة حقاً ، منذ أن كان أميراً وعاملاً لأبيه على « شلب »
وحاكماً على اقليم الجوف البرتغالي كله ، وهناك طابت له الأيام في صحبة صديقه الحميم
ابي بكر بن عمار الذي عاد فحقد عليه ، ثم غدر به بعد أن استوزره ، لأنه قال :

مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكه في غير موضعها نالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

عندما اعتلى المعتمد عرش أبيه ، تملأت الأنوار في صفحة الوادي الكبير ، وفاضت
بالموسيقى جوانب قصوره البيضاء ، ثم تزوج من جارية تدعى « الرميكية » استطاعت أن
تجيز شطر بيت ارتجله ، وكان قد سأل صاحبه ابن عمار ليجيزه ، فأرتج عليه ، فأجازته هي
على البديهة ، وهي تغسل في النهر ، على مقربة من « فحص الفضة » . وعندما جمعت
بها إحدى نزواتها ، فتمنت لو سارت في الطين برجليها ، نشر لها الكافور والعنبر على
الحصباء ، وصنع لها منهما طيناً ، ويقال انها هي التي أغرت المعتمد بقتل ابن عمار لما
هجاه بقصيدة ذمها فيها بقوله :

تغيرتها من بنات الهجان رميكية ما تساوي عقالا
فجاءت بكل قصير العذار لئيم النجارين : عما وخالا
قصار القدود ولكنهم أقاموا عليها قروناً طوالا

★ ★ ★

بدأت مأساة المعتمد عندما هاجم ألفونسو السادس ملك قشتالة مدينة اشبيلية ، وكاد
يستولي عليها ، فاستنجد المعتمد بيوسف بن تاشفين أمير المرابطين في المغرب ، فاجتاز
البحر على رأس جيش جرار ، ودحر ألفونسو في معركة « الزلاقة » التي انتصر فيها انتصاراً
ساحقاً عام ٤٧٩ هـ ١٠٨٦ م ، ثم عاد ابن تاشفين بجيشه الى المغرب ، تاركاً المعتمد في
اشبيلية يوالي حياة الترف والبذخ واللهو والمجون .

لكن ابن تاشفين عاد بعد سنتين الى الأندلس واستولى عليها كلها ، وأنهى دولة بني
عباد لازالة دول الطوائف بعد أن استشرى فسادها وتهاونها ، وأخذ المعتمد أسيراً مع
أسرته وأرسله مكبلاً بالقيود الى طنجة ، ثم الى مراكش ، فسجن « أغمات » عند سفوح
جبال الأطلس ، حيث راح هناك يسترجع صور قصوره الاشبيلية ، وما كان يزينها من
شجر الزيتون ، مترجماً بشعره كل لحظة من حياته السالفة ، ونادياً حظه حتى وافاه أجله
عام ٤٨٨ هـ ، في دور اتخذت له من الطين تحت أغصان النخيل ، بعد أن حكم عشرين عاماً .

ولم يكتف ابن تاشفين بأسره واذلاله ، بل قتل جميع أبنائه الذكور ، وأذل زوجته
وبناته ، فصرن يغزلن للناس من أجل لقمة العيش . يقول وقد جاءه العيد وهو في ذل
الأسر :

في ما مضى كنت بالأعياد مسروراً فساءك العيد في أغمات مأسورا
تري بناتك في الأظمار جائعة يغزلن للناس لا يملكن قِطميرا
قد كان دهرك أن تأمره ممتثلاً فردك الدهر منهياً ومأمورا

كما صار يشتهي الموت في أواخر أيامه ، ويفضله على حياة الذل والأسر والقهر ،
فكيف يرغب في العيش من يرى بناته عاريات حافيات الأقدام ، بعد أن كن يرفلن بالحرير
والدمقس ؟ :

دعا لي بالبقاء وكيف يهوى أسير أن يطول به البقاء ؟
أليس الموت أروح من حياة يطول على الأسير بها الشقاء ؟
أرغب أن أعيش أرى بناتي عواري ، قد أضر بها الحفاء ؟

تعد القصائد التي قالها المعتمد بن عباد في منفاه ، وهو في « أغمات » ، وصور فيها
مرارات السجن وآلام النفي والتي يذكرنا فيها بروميات أبي فراس الحمداني ، من
روائع الشعر العالمي ، فلنسمعه يخاطب قيده :

قيني ، أما تعلمني مسلماً أبيت أن تشفق أو ترحما ؟
دمي شراب لك واللحم قد أكلته ، لا تهشم الأعظما
يبصرني فيك أبو هاشم فينثني القلب وقد هشما
أرحم طفلاً طائشاً لبه لم يخش أن يأتيك مسترحما
وأرحم أخيات له مثله جرعتهن السم والعلقما
منهن من يفهم شيئاً فقد خفنا عليه للبكاء العمى
والغير لا يفهم شيئاً فما يفتح الا للرضاع فما

وقوله يخاطب سرب قطا رآه ، كما خاطب أبو فراس قبله الحمامة التي وقفت في أعلى
نافذة بالسجن ، وهي لا تشعر بحاله :

بكيت الى سرب القطا اذ مررن بي سوارح لا سجن يعوق ولا كبل
ولم يك - والله المعيد - حسادة ولكن حينئذ ، ان شكلي لها شكل
فأسرح لا شملي صريع ولا الحشا وجيع ولا عينا يبيكيهما ثكل
هنيئاً لها أن لم يفرق جميعها ولا ذاق منها البعد عن أهلها أهل
وأن لم تبت مثلي تطير قلوبها اذا اهتز باب السجن أو صلصل القفل
بنفسي الى لقيا الحمام تشوق سواي يحب العيش في ساقه حجل
لئن عصم الله القطا في فراخها فان فراخي خانها المال والظل

وقوله وقد رأى قمرية أمامها وكر فيه طائران يرددان نغماً :

بكت أن رأت الفين ضمهما وكر مساء ، وقد أحنى على الفها الدهر
وناحت وباحت فاستراحت بسرهما وما نطقت حرفاً يبوح به سر
فما لي لا أبكي ؟ أم القلب صخرة وكم صخرة في الأرض يجرى بها نهر ؟
بكت واحداً لم يشجها غير فقهه وأبكي لآلاف عديدهم كثر
بنّي صغير أو خليل موافق يمزق ذا ففر ويفرق ذا بحر
ونجمان ريب للزمان احتواهما بقرطبة النكراء أو رندة القبر
غدرت اذن ان صن جفني بقطرة وإن لومت نفسي فصاحبها الصبر
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معي لثلهما فلتحزن الأنجم الزهر

ومن كلامه الجزل قوله يوم كُبل فراح يخاطب الكبل قائلاً :

إليك ، فلو كانت قيودك أشعرت تصرّم منها كل كف ومعصم
مهابة من كان الرجال بسبيته ومن سيفه في جنة أو جهنم

ويندب على نفسه ، ويبكي حظه السيء ، ويقارن بين ماضيه المتألق ، وحاضره الموحش ، وكيف كان رمحه كالثعبان في الحرب ، فصار القيد يلتف على يديه ورجليه كالثعبان ، ويتوب الى الله ، لعله يفرّج كربته ، ويجلو عنه سحب الهموم :

غنتك أغماتية الألحان .. ثقلت على الأرواح والأبدان
قد كان كالثعبان رمحك في الوغى فغدا عليك القيد كالثعبان
قلبي الى الرحمن يشكو بثه ما خاب من يشكو الى الرحمن
يا سائلاً عن شأنه ومكانه ما كان أغنى شأنه عن شاني

شتان بين ماضيه الحافل بالمسرات والملاذات ، وحاضره الأسود القاتم ، بين العز في ظلال الأعلام ، وهي ترفرف في ساحات القتال ، وبين الذل في القيود التي يجررها وقد ثقلت عليه :

تبدلت من عز ظل البنود بذل الحديد وثقل القيود
وكان حديدي سناناً ذليلاً وعضباً رقيقاً صقيلاً
لقد صار ذاك وذا أدهما يعض بساقي عض الأسود

ويأسى على حالة السجن والأسر التي آل إليها في أغمات ، بعد الأبته والسلطان ، ويبكي الملك الزائل ، والمجد الآفل اللذين كاناله في أشبيلية بلد الزيتون ، حيث تغني القيان ، وتغرد الأطيار فيقول :

غريب بأرض المغربين أسير
وتندبه البيض الصوارم والقنا
إذا قيل في أغمات قد مات جوده
مضى زمن والمملك مستانس به
فيا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بمنبئة الزيتون(١) مورثة العلى
بزاهرها السامي الذي جاده الحيا
قضى الله في حمص(٢) الحمام وبعثرت
سييكي عليه منبر وسرير
وينهل دمع بينهن غزير
فما يرتجى للجود بعد نشور
وأصبح عنه اليوم وهو نفور
أمامي وخلفي روضة وغدير
تغني قيان أو ترن ليور
تشير الثريا نحونا ونشير
هنالك عنا للنشور قبور

★ ★ ★

لقد رثى أبو بكر بن اللبانة الداني - وكان من أخلص المخلصين للمعتمد بعد نكبته - بني عباد ، وصور ما أصابهم ، وكيف ركبوا السفن في طريقهم الى المنفى ، وهو يسوق الينا هذا المشهد على نحو من الصدق والدقة ، حتى ليخيل الينا أننا نرى الناس يتزاحمون على ضفة نهر الوادي الكبير ليروا السفن تبتعد عن الشاطئ بأصحابها ، وسط فيض من الدموع الغزيرة :

تبكي السماء بمزن رائع غادي
على الجبال التي هُدت قواعدها
ان يخلعوا فبنوا العباس قد خلعوا
حموا حريمهم حتى اذا غلبوا
وأَنزِلوا في متون الشهب واحتملوا
وعيث في كل طوق من دروعهم
نسيت الا غداة النهر كونهم
حط القناع فلم تستر مخدرة
حان الوداع فضجت كل صارخة
سارت سفائنهم والنوح يصحبها
يا ضيف أقفر بيت المكرمات فخذ
على البهاليل من أبناء عباد
وكانت الأرض منهم ذات أوتاد
وقد خلت قبل حمص أرض بغداد
سيقوا على نسق في جبل مقتاد
فويق دهم لتلك الخيل أنداد
فصيغ منهمن أغلال لأجياد
في المنشآت كأصوات بالحاد
ومزقت أوجه تمزيق أبراد
وصارخ من مفداة ومن فادي
كأنها ابل يحدو بها الحادي
في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد

ورأى ابنُ اللبانة حفيدَ المعتمد ، وهو غلامٌ وسيمٌ قد اتخذ من الصياغة صناعةً ، وكان لقب في دولتهم من الألقاب السلطانية بفخر الدولة ، فنظر إليه وهو ينفخ النار بقصبة الصائغ فقال :

صرفت في آلة الصواغ أنملة	لم تدر إلا الندى والسيف والقلم
يد عهدتك للتقبيل تبسطها	وتستقل الشريا أن تكون فما
يا صائغاً كانت العليا تصاغ له	حلياً ، وكان عليه الحلي منتظماً
لننفخ في الصور هول ما حكاه سوى	يوم رأيته فيه تنفخ الفحماً
وددت اذ نظرت عيني اليك به	لو أن عيني تشكو قبل ذاك عمى !
ما حطتُ الدهر لما حط عن شرف	ولا تحيف من أخلاقك الكرماً
والله لو أنصفتك الشهب لا تكشفت	ولو وفي لك دمع الغيث لانسجماً
بكي حديثك حتى الدبر حين غدا	يحكيك رهطاً وألفاظاً ومبتسماً

على هذه الصورة المؤسسية الحزينة انتهت حياة المعتمد بن عباد الشاعر الملك ، وحياة أولاده وأحفاده : من القصور المنيفة في اشبيلية ، الى بيوت الطين وسعف النخيل في أغمات ، من التاج المرصع بالجوهر والياقوت ، الى السلاسل الحديدية الثقيلة التي تقيده ولا يستطيع لها جراً ، ولا شك أن حياة اللهو والاستهتار التي انغمسوا فيها كانت أكبر عامل في تهديم مجد العرب وزوالهم عن الأندلس بعد ثمانية قرون هي بحق من أزهى ما عرفت الحضارة الانسانية .

□ المصادر :

- ١ - الشعر الأندلسي لقارسيا غومس - ترجمة حسين مؤنس .
- ٢ - في ربوع الأندلس لعيسى الناعوري .
- ٣ - الذخيرة في معادن أهل الجزيرة لابن بسام .

★ ★ ★